الكتابات الغربية ودورها في تشويه تاريخ الجزائر العثماني

بلقاسم قرباش

باحث دكتوراه في تاريخ الدولة العثمانية
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة معسكر – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بلقاسم قرباش، الكتابات الغربية ودورها في تشويه تاريخ الجزائر العثماني.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ١١٨ – ١٢٣.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّص

إن كتابات كتلك التي خلفها أسرى أمثال: فرانسيس نايت وهايدو، والأب دان، وسرفنتيس؛ ومارتين ماريا وسوزانا دونالسون؛ وتيدنا... وغيرهم، كل هذه الكتابات تعتبر مصادر مهمة لكتابة تاريخ الجزائر العثماني، لكن أغلبها كانت كتابات تراكمية جاءت لخدمة المصالح الاستعمارية المستقبلية. يضاف إلى هذه الروايات، العديد من الرسائل والعرائض، القوائم، الترجمات، التقارير، الشهادات البحوث، التصريحات، الأغاني الشعبية، وعدد هائل من الوثاق ومذكرات الأسرى ممن بقوا أحياء بعد عودتهم من الأسر، وكذلك المخطوطات المتعلقة بالأسر التي لا تزال حتى اليوم مجهولة في العديد من الدول الغربية. وفي المقابل فحتى المصادر الانجليزية اعتمدت في أغلبها على النموذج الأوربي ومصادره، بحيث أن الكتاب الانجليز لم يقاوموا خيالهم المرهف، فأوجدوا المسارح دون أي مؤرخين أو أي احتمال ديني، مثل رسامي النهضة الذين صوروا المسيح (عيسى عليه السلام) ورسله الحواريين بملابس إيطالية معاصرة وبأسلوب وموضع في الناصرية مع أن البناء على الطريقة الفلورنسية، ونفس الشيء فعله الكتاب الانجليز الذين صوروا السكان المغاربة بالزي الانجليزي الصناعي بحيث أنه ولا أي فرد مغربي في الدراما الإليزابيثية يوحي بالانتماء للإسلام. فهؤلاء الكتاب الذين افتدوا من الأسر لم يكونوا موضوعيين لأنهم كانوا دائما معاقين بـ أولائك الكارهين والحاقدين على الإسلام.

مُقَدِّمَة

إن أعمال كتلك التي خلفها فرانسيس نايت وماريا مارتين وديبغو هايدو والأب بيار دان وميغال دي سرفنتيس وأوكلاي وشالر... وغيرهم تُعدّ مصادر مهمة في كتابة تاريخ الجزائر، بحيث غطت النقص الذي خلفته المصادر المحلية الجزائرية خاصة الجانب السياسي، كما ساهمت هذه المصادر نفسها في الترويج للاستعمار. لكن السؤال الأكثر أهمية هنا هو: ما هي أفضل طريقة للسيطرة على المجتمع الفرنسي وجعله يوافق على الحرب ضد الجزائر؟ من المحتمل، أن أفضل طريقة للسيطرة هي" التحكم بالعقل"، ولهذا لجأ أصحاب القرار في فرنسا إلى الصحافة الفرنسية التي لم تكن سوى موظف بدون أجر تابع لوزارة الدفاع في الحملة على الجزائر حيث استخدمت هذه المصادر كأداة للتضخيم والحشد.

أولاً: نظرة المصادر الأوربية إلى الجزائر العثمانية

يفتتح لومون كتابه (la captivité de l'amiral bonard):

"كنا نريد أن نمنح البربر فرصة للكشف عن القسوة والديانة الخاطئة التي نشأت عليها شخصيتهم."[1] لم تختلف نظرة الكتاب الأوربيين إلى الجزائر العثمانية، فأغلب هذه الكتابات المعاصرة تستقي نظرتها من مصادرها الغربية (شهادة الأسرى وتقارير القناصل ومنظمات افتداء الأسرى) دون العودة إلى المصادر العربية التي تعتبر طرفًا مهمًا في كتابة تاريخ هذا الجزء الجنوبي من البحر

ISSN: 2090 – 0449 | علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

المتوسط، فالقاضي عند إصدار حكمه يجب عليه أولاً الاستماع إلى أدلة طرفي النزاع، ليحكم في الأخير على ضوء المعطيات المتوفرة لديه. وقد جاءت أغلب هذه المصادر والكتابات متشابهة في أطروحاتها، خدمة للمصالح الاستعمارية المستقبلية، ففي وقت كانت فرنسا تعتبر الجزائر مملكة مستقلة وتنعت حكامها بالملوك (les rois d'Alger) واستخدام بحارتها في مهاجمة السواحل الاسبانية في سنة ١٥٤٣ عندما هاجم خير الدين نيس، ثم سنة ١٥٥٢ عندما استخدم صالح رايس لقصف السواحل الاسبانية وغيرها من المساعدات المهمة، ها هي اليوم تستخدمهم كحجة لاحتلال الجزائر وهذا باتهامهم بالقرصنة على السواحل الأوربية.

إن هذه الشهادات التي قدمها لنا الأسرى يضاف إليها عددًا هائلاً من الرسائل والعرائض، القوائم التقارير الترجمات، البحوث، المناظرات، الشكاوي، الأغاني الشعبية، مذكرات الأسرى الأحياء (الناجون) وهناك أيضًا آلاف مخطوطات الأسر التي هي اليوم مجهولة (مثل مذكرات جون وايت هيدس في المكتبة الليبرالية)، مع آلاف الرسائل التي خلفها الوكلاء التجاريون بشمال إفريقيا وما قدمه القناصل لنا عن النزاعات البحرية والعبودية والمفاوضات والافتداء.[٢] يقول جون ب. وولف: "كل مَنْ يرغب في كتابة تاريخ عام عن إيالة الجزائر التركية - البحرية سيكون مدينًا كثيرًا للأشخاص الذين عاشوا في الجزائر وكتبوا عن تجربتهم بالإضافة إلى مسؤولي الدول الأوربية الذين أرادوا أن يبقوا حكوماتهم على اطلاع على الأحوال والمشاكل... إن أعمال هايدو[٣] ومرمول[٤] لا تقدر بثمن ولولاها لما قارب أي كتاب عن المغرب حدود الثقة العلمية... ومن سوء الحظ أنه لا وجود لوثائق أخرى مكتوبة من قبل الأتراك أو الجزائريين لا بصفتهم مسؤولين ولا رحالة، نعني بذلك الوثائق المتوفرة لنا نحن الذين لا نعرف غير اللغة الأوربية".[٥]

ما يمكن ملاحظته من خلال كلامه هو اعتماده على مجرد المصادر الأوربية في تحليل أوضاع دولة تختلف مع أوربا دينيًا وأثنيا وحتى فكريًا دون العودة إلى المؤلفات العربية والتركية (أي حل مشاكلي من خلال استنباط حلول مشاكلك السابقة مع أن مشكلتي تختلف عن مشكلتك جذريا)، ورغم أنه زار العديد من الدول الأوربية خلال عمله على تأليف هذا الكتاب إلا أنه لم يزر دول البحر المتوسط الجنوبية ولا حتى تركيا للاطلاع على مصادرها مع أن قيمة تأليف هذا الكتاب كان ذا ميزانية ضخمة. كما أن الكاتب اعتبر بأن الكتابة في الموضوع من غير الاعتماد على هايدو ومارمول يُعدّ عملاً غير علمي، مع العلم أن الأول كان قسًا بنديكتيًا ساهمت إيديولوجيته في كتابة مؤلفاته، في حين أن الثاني كان جاسوسًا تم أسره من طرف السعديين بعد أن شارك في حملة شارلكان على تونس سنة ١٥٣٥ وما تولد لديه من حقد ضد الإسلام يظهر جليًا في كتابه "إفريقيا"، في المقابل نلحظ أن جون وولف لم يعتمد على الحسن بن محمد الوزان[٦] الملقب بليون الإفريقي صاحب كتاب "وصف إفريقيا" الذي كان يعرف جيدًا جغرافية هذه المنطقة وكذا ثقافته الإسلامية القريبة من سكانها، مع أن مارمول اعتمد بشكل واضح على منهج ليون الإفريقي في تأليف كتابه.

وتنتهي مقدمة مترجم كتاب هايدو (la captivité à Alger): "عمل هايدو هو صرخة قلب نبيل، ونداء للرأفة المسيحية الذي عن طريق آباء الافتداء لطف بكثير من البؤساء، نحن نحترمه كثيرًا،[٧] كل هذه الشهادات التي قدمها هايدو ساهمت في جعله أبرز مصادر التأريخ لتاريخ الجزائر العثماني، رغم أنّ بعض الكتاب شككوا في صدق إقامته في الجزائر إلا أن ديغرامون نفى ذلك بقوله: "لقد أقام هايدو عدة سنوات بالجزائر بين سنة (١٥٨١-١٥٨٧)"، ويضيف في هامش ترجمته لكتاب هايدو (Les Rois d'Alger): "عن طريق ذكائه استطاع فيرديناند دينيس (Ferdinand Denis) التشكيك في صحة إقامته في الجزائر... لكن باكتشاف مخطوط للأب دان "مشاهير الأسرى المسيحيين المستولى عليهم في البحر من قبل الكفار المسلمين" تم دحض كل هذه الشكوك".[٨] حقيقةً فإن كتابات هايدو تُعدّ أحد أهم المصادر والوثائق في كتابة تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية ولكنها لا تمثل المصدر العلمي الموثوق كما ادعى جون ب. وولف في كتابه سالف الذكر.

ويقول صاحب كتاب "القراصنة والحرب البحرية": "أصبح القورصو (La Course) بالنسبة للجزائر المصدر الوحيد للغنى تقريبًا وهو ما يعرف بالجهاد (La Guerre Saint)، وكانت مهمة السفن الجزائرية هي إيذاء العدو الوهمي والمبتدع إسبانيا، ومن أجل هذا كان يجب تحطيم تجارتها وسلب سواحلها".[٩] إن نظرة الكاتب لم تختلف عن سابقاتها فهو يرى أن الجزائر كانت تقود حربًا وهمية ضد عدو وهمي هو إسبانيا، تتلقى فيها الأوامر من الإدارة التركية بحيث أنها كانت مجرد طرف ثانوي مصيرها متعلق بالحرب العثمانية الإسبانية. إن أحد أبرز المصادر في كتابة تاريخ الجزائر خلال القرن السادس هو مُؤلف سرفنتيس[١٠] (La Captivité d'Alger)، وتبرز أهمية هذا المصدر في اعتماد صاحبه على شهادة حية، إضافة إلى مكانته العلمية والاجتماعية، ويقول مارتيال دويل: "إذا سمح لي الوقت لأقول بعض الأشياء التي قام بها هذا الجندي بحيث إنني متأكد بأنها تهمكم وستهركم أكثر من مغامرات "دون كيشوت".[١١]

أما فيما يخص رواية دون كيشوت فهي ترجع لنفس الكاتب سرفنتيس حيث ألفها أثناء فترة أسره في الجزائر التي نشرت في جزأين ١٦٠٥، ١٦١٥، ومن خلال اطلاعنا على الرواية لاحظنا النظرة السلبية للكاتب نحو الأندلسيين والعرب والأتراك، ففي إحدى صفحاتها يقول: "لم يفهم صاحب المنزل في البداية لماذا دعاه دون كيشوت سيّد القصر، ولكن بما أنه كان داهية أندلسيا ولصًا مغرقًا اللصوصية في مهنته أجابه: "على هذا الأساس يا سيدي ستكون الحجارة سريرًا وتيرًا لسيادتك وأنا على يقين أنك لا تنام إلا كالحارس اللّيلي، وهكذا يمكنك أن تترجل وستتأكد من أنك ستجد ما تقضي به لا ليلة واحدة دون نوم بل سنة كاملة"،[١٢] كما ذكر

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

فيها مشاهد من أسره بطريقة غير مباشرة والنزاع الوهمي بين الخيال والحلم والواقع. وهناك أيضًا مصدر آخر هو مُؤلف الأب دان (Histoire de Barbarie et de ces Corsaire)، والذي يعتبر أحد أهم المصادر المعتمدة من طرف الكتاب الغربيين، ومما يذكره عن الجزائر قوله: "كان البحر دائما مغطى بالقراصنة الأتراك والبربر الذين قاموا بتخريب عظيم وقسوة لا تصدق".[١٣]

من خلال هذه الكتابات يمكن أن نكتشف بأن أغلبها كان يصب في قالب واحد هو اللصوصية القرصنة، القسوة، العبودية، دون الإشارة إلى أعمال قراصنتهم أو المسلمين الذين كانوا يعمدون يوميًا في روما، وهاهو ماتاي يميز بين الأخوين بربروسة وأندري دوريا فيصفهما بمصطلح (les deux frère Pirate)، أما الثاني فيقول عنه (Corsaire)، وكلمة (Pirate) هي كنية سيئة يوصف بها البحارة الخارجون عن القانون، أما (Corsaire) فتطلق على البحارة المخولون من طرف الدولة لممارستها، وهنا أراد الكاتب إسقاط هذا المعنى عمدًا.[١٤]

في مقارنته بين خير الدين وأندري دوريا قائد الأسطول المسيحي يذكر لامب قائلاً: "وكان بمقدور خير الدين أن يصبح قرصانًا عظيمًا، لكنه فضّل أن يبحر مستظلاً بعلم واحد هو العلم التركي الذي كان يرفعه مع راية قيادته، وكان يحمل رتبة أمير بحر، ويتقاضى مرتبه من الخزينة التركية، ويبني سفنه في المسفن، وينفذ خطة أمة واحدة، محاربًا ست إمارات أو قوى معادية، أما خصمه أندري دوريًا فعادة ما كان يوصف بأميرال الإمبراطورية، وكان يبدل أعلامه كما يبدل ولاءه وكانت له ثلاث عشرة سفينة هي ملكه الخاص في الأساطيل الجنوية والفرنسية والإسبانية، وكان يطالب بنسبة مئوية من الغنائم ولابد من الإشارة إلى أن "أندري دوريا" الذي كان يعمل لصالح الملك الفرنسي فرانسوا الأول كان قد غيّر ولاءه لصالح الإمبراطور الإسباني شارل الخامس، إذ لم يكن مقتنعًا بالمبلغ الذي كان يدفعه له الملك الفرنسي، في حين عرض عليه الإمبراطور مبلغ ستة آلاف دوقة عن كل سفينة».[١٧]

أما الباحثة الأمريكية "سندي فالار" فتصف القباطنة العثمانيين كالآتي: "لقد كان القراصنة البرابرة قادة مراكب مفوّضين للإمبراطورية العثمانية أكثر من كونهم قراصنة، وكان الهدف من غاراتهم قد تحوّل من النهب الصِرف وأسْر الأشخاص إلى الجهاد ضد روما والمسيحية".

ثانيًا: العبودية في الجزائر بين الحقيقة التاريخية والدعاية الاستعمارية الأوربية

في سنة ١٨١٥ كان قد بلغ عدد العبيد الأوربيين الذين رُحِّلُوا إلى أوربا وأمريكا للعمل في المزارع والمصانع خلال الثلاثة قرون أكثر من ثلاثين مليون عبد يضاف إليهم الأسرى المسلمين الذين وجهوا للعبودية في أوربا، وظل لوبي تجار العبيد هو أقوى اللوبيات هناك حتى إنهاء هذه التجارة. يذكر "روبرت دافيس" (Robert Davis) أن عدد الأسرى الأوربيين في الجزائر مابين (١٥٨٠- ١٦٨٠) قد بلغ ٨٥٠ ألف أسير، لكن هذا العدد كان يتطلب أسر (٨٥٠٠) مسيحي في السنة بحيث أن هذا الرقم يبقى عددًا خياليًا ويترك الشك والريبة حوله، خاصةً مع بداية تدهور ولاية الجزائر العثمانية، وفي المقابل فقد بلغ عدد الأسرى المسلمين الذين احتجزتهم فرنسا أواخر القرن الثامن عشر أكثر من عشرة آلاف أسير في السنة في الوقت الذي لم يتجاوز فيه الأسرى المسيحيون ألف أسير في مدينة الجزائر خلال نفس الفترة.

إن هذه الكتابات الأوربية كانت مجرد كتابات تراكمية تطلبت مصالح منظمات الافتداء كتابتها من أجل إعطاء صورة قاتمة حول هؤلاء البربر المتوحشين وما يعانيه إخوتهم في الدين من اضطهاد وعبودية في هذه المناطق، بحيث أنه كلما ضخمت هذه الحكايات كلما تمكنوا من توفير أموال إضافية للفداء. ويضاف إلى كل هذا المداخيل التي كان يجنيها هؤلاء الأسرى في حال طبع مذكراتهم عن العبودية في الجزائر، حيث يذكر جيمس ريلي أن قصة والده عن الأسر قد بيعت منها مليون نسخة وكان من بين قراءه لينكولن أبراهام رئيس الولايات المتحد الأمريكية.[١٥] وفي سنة ١٧٩٧ صدر كتاب الأسرى الأمريكان في الجزائر (The American captives) ثم صدرت سنة ١٨٠٠ طبعته الثانية، وتباع هذه الطبعة حاليًا بـ (٢٥٠٠ دولار) أما الأولى فتباع بـ (٣٥٠٠ دولار).

يرى العديد من المؤرخين الأوربيين أن الحرية الدينية في الجزائر كانت معدومة حيث كان يفرض على المسيحيين الدخول في الإسلام مقابل امتيازات كثيرة، في حين أن الباقين على مسيحيتهم كانوا يشتغلون في كل الأعمال المنحطة إلى غاية افتدائهم أو الهرب أو الموت. في حين يفند أحد الكتاب الأوربيين هذه الادعاءات بقوله: "لقد كان للأسرى المسيحيين الحرية في تأدية عباداتهم الدينية، حيث كان يوجد في مدينة الجزائر ثلاث معابد مستعملة خاصةً من طرف الأسرى لأنه بالنسبة للمسيحيين الآخرين والذين يريدون الاستماع للقداس، إما الحضور لدى القنصل أو في شقة بعض القساوسة".[١٦] وهذه الشهادة يمكن اعتبارها مناقضة لما جاءت به مصادرهم والتي تتمحور في غالبها حول العبودية والاضطهاد والمعاملة اللاإنسانية لهؤلاء الأسرى، وإلا كيف نفسر أن منهم من عمل لدى حاكم الجزائر في حين أن الكثير منهم استطاع الرقي في سلم المراتب إلى أن أصبح حاكمًا عامًا للأسطول الجزائري، وفي بعض الأحيان قائدًا للأسطول العثماني أمثال: علج علي، وحسن آغا، وعلي بتشنين، ومراد رايس، وحسن فيزينيانو وغيرهم الكثير.

لقد كان الأسرى الذين يجلبون يبقون وسط إخوتهم في الدين في شمال إفريقيا، مقاومات أخرى وعقوبات ضد الباقين في الأسر حتى يتم تحريرهم أو يهربون أو يموتون، أما أولائك الذين يعودون إلى أوطانهم فيقصون حكاياتهم في المدن والأسواق ويعطون نظرتهم حول العالم الإسلامي.[١٧] ومن هنا، فإن النظرة السلبية التي كان يرسمها هؤلاء الأسرى عند عودتهم إلى الديار كانت تعطي تصورًا سلبيًا وفكرة قاتمة لدى السكان العاديين الذين لا يعرفون عن

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الجزائريين سوى أنهم أعداء دينهم، خاصةً وأن الكنيسة كانت تجوب بهؤلاء الأسرى المحررين المدن حيث يضخمون قصصهم، وذلك تقديرًا للمساعدات التي قدمتها لهم الكنيسة من أجل تحريرهم وكذا لمساعدة جمعياتها[١٨] من أجل استمالة المزيد من المتطوعين لجمع مزيد من الأموال.

يذكر فيتكيس دانيال: "آلاف البريطانيين المنسيين والتي لا توجد أسماؤهم حتى في قوائم افتداء الأسرى، هناك قصة مهمة جدًا كتلك التي حدثت في سنة ١٦٦٣، فالملك تشارلز الثاني[١٩] زار توماس ليرتينغ قائد الأسطول والذي سمع منه قصص مذهلة عن الكيكر(Quaker)[٢٠] ورفقائه الانجليز المأسورين وكيف أنهم كانوا يغامرون بحياتهم حيث استطاعوا طرد هؤلاء المغتصبين إلى ديارهم "دون أن تسقط ولا قطرة دم واحدة".[٢١] وقد كان أولئك الأسرى ذوي الحرف والمهارات يمتازون بتقدير خاص من قبل الحكام ففي ٢٨ أكتوبر ١٦٩٩ ذكر مولاي إسماعيل للسفير الانجليزي أن بعض الأسرى المسيحيين من نحاتي الفخار لم يكن لديهم ما ينحتونه، حيث يقومون بتثبيت أعمدة السفن التي ليست من اختصاصهم، إضافة إلى أنهم كانوا يشتغلون في كل الأعمال العظيمة.[٢٢]

لقد اعتمدت المصادر الانجليزية كلها على النموذج الأوربي ومصادره، بحيث أن الكتاب الانجليز لم يقاوموا خيالهم المرهف، فأوجدوا المسارح دون أي مؤرخين أو أي احتمال ديني، مثل رسامي النهضة الذين صوروا المسيح (عيسى عليه السلام) ورسله الحواريين بملابس ايطالية معاصرة وبأسلوب وموضع في الناصرية والبناء على الطريقة الفلورنسية، ونفس الشيء فعله الكتاب الانجليز الذين صوروا السكان المغاربة بالزي الانجليزي الصناعي بحيث أنه ولا أي فرد مغربي في الدراما الإليزابيثية يوحي بالانتماء للإسلام، فهؤلاء الكتاب الذين افتدوا من الأسر لم يكونوا موضوعيين لأنهم كانوا دائمًا معاقين بـ أولائك الكارهين والحاقدين على الإسلام.[٢٣] ويقول جوزيف مورغان: "بكل تعاسة، كان من الصعب جدًا إنهاء كل هذا، ففي القائمة التي طبعت سنة ١٦٨٩، يوجد (١٦٠) سفينة انجليزية أسرت من طرف الجزائريين بين (١٦٧٧ – ١٦٨٨)، فما هو عدد الانجليز الذين أخذوا عن كل سفينة إذن؟ يمكننا ترجيح مابين (٧٠٠٠) إلى (٩٠٠٠) أسير بريطاني بين رجل وامرأة أخذوا للعبودية في الجزائر خلال هذه السنوات".[٢٤]

يذكر دفيس روبرت أن سفن القرصنة لشمال إفريقيا تمنحنا نظرة عن أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، فحوالي (٣٥) ألف أوربي خلال هذه الفترة وجدوا بالساحل البربري، كثير منهم في طرابلس وتونس وفي مدن مختلفة في المغرب، لكن الجزء الأكبر أو الغالب من هؤلاء الأسرى وجدوا في الجزائر. وما يمكن أن نحدده من خلال هذا العمل هو أن غالبية هؤلاء الأسرى قد كانوا بحارة أسروا مع سفنهم عكس ما يروج له كتابهم الذين رأوا أن العبودية في الجزائر كانت موجهة نحو الطبقة البائسة في أوربا، ولكن حتى وإن سلمنا بما جاء به هؤلاء الكتاب، سنلحظ أن أغلب أولئك الأسرى المعدومين كانوا يفضلون حياتهم في الأسر على البقاء في أوربا ملزمين بالفقر الأبدي، خاصةً ما توفره لهم امتيازات الدخول في الإسلام.

أما فيما يخص النساء، يرى العديد من الكتاب الأوربيين ومن بينهم روبرت دافيس، وجوزيف مورغان (Joseph Morgan) أن المرأة بمجرد أن يتم أسرها تأخذ إلى قصر الداي لتصبح من حريم الباشا، حيث أنه كثيرًا ما تُحوَّلُ إلى الإسلام وتبقى هناك مع أبنائها. لكن كارتر (Carter) أسير الداي يذكر أن "امرأة" كانت معهم أرسلت فور وصولها إلى المستشفى الإسباني حيث ستبقى حتى يتم افتداؤها.[٢٥] وفي كتاب (The Barbary Slaveship) تحدث ألان ألديس (Aldan Adiss) عن الممارسات الجنسية التي كان يقوم بها المسلمون الأتراك ضد الأسرى من الأطفال وخاصةً النساء دون أن يذكر مصادر المعلومة، حيث يقول: "القفص رقم ستة وسبعة، كلاهما جاهز للعرض "فخامتك"، كلا القفصين مضاعف الحجم حيث كان يتم جمع النساء مع بعض في حبل مشترك... واحد من هذه الحبال كانت يحتوي أمهات جميلات، ونفس العدد من البنات المراهقات وعشرات الأخوات وعدد قليل من التوائم".[٢٦]

في حين يقدم لنا الأب دان عدد الأسرى المسيحيين الموجودين في البلدان البربرية خلال القرن السابع عشر، حيث أن الجزائر وحدها كانت تحتوي على أكثر من ٢٥ ألف، فبالنسبة للمرتدين كان هناك (٨٠٠٠ آلاف) منهم (١٠٠٠) أو (١٢٠٠) امرأة. وتحدثنا سوزانا راونسن (Susanna Rowson)[٢٧] أن أحد زملائها واسمه سبستيان كان يعمل في حديقة القاضي، أخبرها بأن هذا الأخير كانت لديه إحدى عشرة زوجة، وثلاثين خليلة، وابنتين جميلتين.[٢٨] أما فولتير في عمله (المرأة العجوز) يريدنا أن نعتقد بأن الأسيرات كن قد اغتصبن من كل الرجال بلا استثناء، ولكن موليير (Molière) يقدم لنا المرأة على أنها بعد سنوات من الأسر في شمال إفريقية، ما تزال صالحة للزواج في أسرة برجوازية راقية، والظاهر أنه لم يكن من الصعب جدًا على امرأة شابة أن تنتهي إلى الحكم بأن زواجًا في الجزائر قد لا يكون مختلفًا كثيرًا عن الزواج في أوربا، والأكيد أن مثل هذا الزواج كان أفضل من وضعية وصيفة في البيت مدى الحياة.[٢٩]

وتمثل رواية ماريا مارتين(Maria Martin)[٣٠] إحدى أهم المؤلفات الغربية عن حالة الأسرى في الجزائر، فقد ذكرت أن مالكها كان رجلاً مسنًا قبيح الوجه، قصيرًا وملطخًا بالأوساخ، اشتراها من سوق العبيد وقام القاضي (cadi) بتسجيلها كملكية خاصة له، حيث كلفت برعاية ابنه. وتتحدث عن كره المسلمين للمسيحيين بقولها: "هم يكرهون المسيحيين... حيث يدرسون في قرآنهم، أن مَنْ يقاتل ويموت في معركة ضد المسيحيين، يدخل فورًا الجنة، أما في حالة النصر و إن تحطمت منازلهم تحول مباشرة إلى الجنة".[٣١] وتذكر أيضًا الممارسات الجنسية التي كان يقوم بها الأتراك في الجزائر ضد المسيحيات حيث تقول: "لم يكن نادرًا على

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

المعذبين إجبارنا على تجريد أنفسنا والبقاء عراة، ثم الوقوف لدقائق على أرجلنا في نار متأججة، وفي أحيان أخرى يدخلون الجمر والفحم في صدورهن... وفي مرات كن ينثرن الرز المغلي على أجسادهن العارية."[٣٢] وفي المقابل يذكر كارتر أن دين المسلمين هو دين عظيم يعبدون فيه إلهًا واحدًا، وأن محمدًا (رسول الله) هو نبي كبير رغم أن مجتمعه ورهبانه لم يعلموه عن الإسلام ولا عن محمد إلا ما قرأه هو بنفسه.

إن الدارس والمتأمل في هذه المصادر الأوربية سيلاحظ أنها ساهمت بشكل مباشر في تشويه صورة الجزائر لدى السكان البسطاء، وهذا ما ظهر جليًا في الحملة الفرنسية على الجزائر والتي ضمت متطوعين من مختلف البلدان الأوربية تدفعهم الرغبة في الانتقام ممَنْ عذبوا إخوانهم واسترقوهم، حيث لم يلقى هذا الاحتلال معارضة كبيرة من طرف الرأي العام الفرنسي. فهذه الروايات لم يدونها مؤرخون ولا باحثون ولا علماء، وإنما في الأغلب كتبها قساوسة ورجال دين ومواطنون أوربيون بسطاء، ولهذا افتقدت للموضوعية، ويضاف إلى كل هذا ما كان يجنيه هؤلاء الأسرى الفقراء من نشر رواياتهم بعد عودتهم إلى الديار فمثلاً: رواية "جون فوكس" (John Focus) التي طُبعت مرة ثانية بعد (٢٣) سنة على صدورها، ورواية "فرانسيس نايت" التي طُبعت مرتين خلال العام الأول من صدورها، ورواية "مارتين أوكلاي" التي صدرت مرتين خلال سنتين، و"جوزيف بيتس" الذي نشر رواية جديدة عن الجزائر هذا بعد أن لقيت روايته الأولى عن القرصنة نتائج عظيمة، ورواية "ادوارد وات" التي طُبعت أربع مرات سنة ١٦٠٠، وكتاب "مدينة القرصنة" لمؤلفه "بَالَنْتِينْ" الذي طُبع ثلاثين مرة ولا يزال حتى الآن يصدر في طبعات جديدة، فتخيلوا قيمة الواردات التي تجنيها دار النشر هذه، إنها فعلاً تجارة مربحة لا يمكن تصورها.

خاتمة

في الحقيقة؛ إن المصادر الغربية كان لها دور كبير في كتابة تاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانية، حيث غطت النقص الذي خلفته المصادر العربية، والتي اهتمت في غالبها بالتأليف الديني والأدبي. وفي المقابل فإن هذه المصادر الغربية لم تكن موضوعية في تحليلها لأوضاع الجزائر، حيث كانت دائمًا معاقة برجال الدين الذين كانوا يقودون محاكم التفتيش، معتمدين على هؤلاء الأسرى لدعم دعايتهم، ولجذب المزيد من التبرعات، يضاف إلى هذا أن هذه المصادر لم يكتبها باحثون وإنما في الغالب كتبها أسرى فقراء، كانوا يريدون الربح المادي من خلال نشر أعمالهم، لأنهم وبعد تحريرهم لم يكن لديهم ما يقومون به، ولهذا كان من السهل التأثير عليهم ودفعهم نحو التأليف، وإن هؤلاء الذين عادوا إلى أوطانهم روجوا لقصصهم في المدن والأسواق عن الجزائر، كل هذه الشهادات خلقت فكرة سلبية عن المنطقة.

إن أحد أبرز المؤلفات الغربية التي انتقدت هذه الكتابات، هو "قود فراي" فيشير في كتابه "الأسطورة البربرية"، الذي رأى أن الجزائر لم تكن في يوم من الأيام وكرًا للقراصنة، وإنما كانت منطقة تنطلق منها الحملات العسكرية على الدول التي لم تكن في حالة سلم مع المنطقة.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهَوامِشُ:

(1) Lemon. A, *la captivité de l'amiral Bonard et de l'amiral Bruat*, Paris, collection Hetzel, J-Libraire Cloye, 1863.

(2) Daniel. j. Vitkus, *Piracy, Slavery, and Redemption, Barbary captivity narratives from early modern England*, New York, Colombia University Press, 2001, p.6.

(٣) **هايدو**: هو رجل دين إسباني كان سجينًا في الجزائر بين سنتي (١٥٧٨ - ١٥٨١)، له عدة مؤلفات منها:

Histoire des Rois d'Alger_ Topographie et Histoire générale d'Alger_ de la Captivité d'Alger.

(٤) **مارمول كاربخال**: ولد في غرناطة، كان ضمن جيش شارلكان الذي احتل تونس سنة ١٥٣٥، ثم بقي في شمال إفريقيا كجاسوس لاسبانيا مدة (٢٢) سنة أسر خلالها من طرف سلطان السعديين، حيث بقي أسيرًا لمدة ٧ سنوات وثمانية أشهر. أنظر: مارمول كاربخال، **أفريقيا**، ترجمة: محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، ١٩٨٤.

Enciclopidia universal illustrada Europeo Americana, Madrid- Barceilona, T XXXlll.

(٥) جون. ب. وولف، **الجزائر وأوربا**، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٦ ص٤٩٥.

(٦) يختلف المؤرخون في سنة ولادته فيرجعها بعضهم إلى سنة ١٤٩٥ والبعض الآخر إلى سنة ١٥٠٠، يرجع نسبه إلى قبيلة بني ريات الزناتية، الواقعة أقصى غرب بلاد غمارة من سلسلة جبال الريف المغربية، انتقل مع أسرته إلى فاس، حيث درس على يد أعلامها وعلى رأسهم الإمام محمد بن غازي المكناسي، بعد أن نبغ في مختلف العلوم وذاع صيته قربه السلطان المغربي إليه، وأوكل له مهام سياسية خطيرة، وقد ساهم نشاطه الدبلوماسي والتجاري لأسرته إلى القيام بعدة رحلات سجل فيها مذكراته "وصف إفريقيا"، وفي إحدى هذه الرحلات إلى تونس تم أسره من طرف القراصنة الإيطاليين والذين سلموه كهدية للبابا في روما، الذي قام بتعميده لكن البعض يرى أن الوزان تظاهر بالمسيحية واشتغل في تدريس اللغة العربية بروما.

(7) Fray Diego de Haedo, *De la Captivité d'Alger*, Tr. Moliner – Violle, Alger, Imprimeur Topographie Adolphe Jourdan, 1911, p.5.

(8) Fray Diego de Haedo, *Histoire des rois d'Alger*, Tr. De Grammont. H.D, Alger Adolphe Jordan, 1881.

(9) Henry Brogniart, *Les Corsaire et la guerre maritime*, Paris, Augustin Challanel édition, 1904, p.22.

(١٠) **ميغيل دي سرفنتيس** (١٥٤٧ - ١٦١٦)، من أبرز كتاب الأدب الاسباني عرف بروايته دون كيشوت، ولد في بلدة هيناريس بإسبانيا حيث لم يلتحق بأي جامعة ورغم هذا فقد كان واسع الاطلاع، شارك في معركة ليبانتو التي جرح بها، وتم أسره من طرف بحارة الجزائر سنة ١٥٧٥، فبقي فيها رغم محاولته الهرب عدة مرات إلى أن تم افتداؤه من طرف عائلته والكنيسة.

(11) Martial Douël, *L'héroïque misère de Miguel de Cervantes esclave Barbaresque*, Romans et Récits, N°75, Paris, Editions de la Vraie France, 1930.

(١٢) سرفانتيس، **دون كيشوت**، ترجمة: صياح الجهيم، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٩، ص١٦.

(13) Pierre dan .R.p, *Histoire de Barbarie et de ses corsaires des royaume, et des villes d'Alger, de Tunis, de salé, et de tripoli*, Paris, chez pierre Rocolet, Imprimeur & Libraire ordinaire du Roi, seconde édition, 1646, p.19.

(14) Mattei. A, *Protestation contre détracteur du systèmeadministratif suivi actuellement en Algérie*, Paris, E. Denni, libraire éditeur, 1869.

(١٧) أنيس القيصي، **النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر**، www.iraqnla.org، ملخص من أطروحة الدكتوراه، تاريخ التصفح: ٢٠١٢/٠٢/١٥، س١١:٠٠.

(١٥) جيمس ويلسن ستيفن، **الأسرى الأمريكان في الجزائر (١٧٩٥ – ١٧٩٦)**، ترجمة: على تابليت، منشورات ثالة، الجزائر، ٢٠٠٧.

(16) Charles Taillard, *L'Algérie dans la littérature française*, Rémpression de l'édition de paris, paris, 1925, p.15.

(17) Robert. C. Devis, *Cristian slave, Muslum masters, White slavery in the Mediterranean, the Barbary coast and Italy*, Palgrave Macmillan, 2003, p.127.

(١٨) هي منظمات كانت مكلفة بافتداء الأسرى مثل منظمة الثالوث المقدس وافتداء الأسرى ومنظمة سيدة الرحمة التي كانت مكلفة بتحرير الأسرى المتواجدين في العالم الإسلامي.

(١٩) **تشارلز الثاني** (1630-1685): ابن تشارلز الأول، وهو أول الملوك الذين استعادوا العرش من أسرة ستيوارت، وفي سنة ١٦٥١م نصَّبه الاسكتلنديون ملكًا إلا أن كرومول هزم جيشَهُ، واضطر للهرب إلى فرنسا. وبعد أن مات كرومول في سنة ١٦٥٨م أصبح الشعب الإنجليزي غير راض بحكومة الوصاية التي خلفت موت كرومول، ولذلك دعوا تشارلز الثاني للعودة، وأصبح ملكًا في سنة ١٦٦٠م، وقد منحهُ برلمانه الأول سلطات واسعة، ومن أهم الأحداث في عهده حربان مع الهولنديين والطاعون الكبير و حريق لندن الكبير و مؤامرة راي هاوس وإجازة قانون الإحضار. أنظر: الموسوعة العربية العالمية قرص إلكتروني، مادة: تشارلز.

(٢٠) هي طائفة مسيحية بروتستانتية تلقب بجامعة الأصحاب، ويتميزون باعتدالهم وقلة تعصبهم على المذاهب الأخرى.

(21) Daniel J. Vitkus, op.cit, p.6.

(22) Ibid.

(23) Ibid, p.٧.

(24) J. Morgan, *A complete History of Algiers, From the Earliest to the present time*, V2, London, J. Bettenham, 1729, p.135.

(٢٥) كارتر، **مذكرات أسير الداي كارتر قنصل أمريكا في المغرب**، ترجمة: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٨٢، ص٢٢.

(26) Aldan Adiss, *Barbary slaveship, slavery during the Napoleonic war*, T2, Edition Bondage Books, 2011, p.20.

(٢٧) ولدت سنة ١٧٦٢ ببرسموث، إنجلترا، وهي ابنة الملازم الأول للبحرية الملكية وليام هاوسوال، وسوزانا ماسغراف التي توفيت عند ولادة راوندسون، ألفت سوزانا راوندسون أول عمل لها "فيكتوريا" سنة ١٧٨٦، وفي نفس السنة تزوجت وليام راونسن، ثم نشرت عملا جديدا "شارلوت تامبل" سنة ١٧٩١، ثم عملها المهم " العبيد في الجزائر"، توفيت ٢ مارس ١٨٢٤. أنظر:

Watts, Emily Stipes. *The Poetry of American Women from 1632 to 1945*, Austin, Texas: University of Texas Press, 1978.

(28) Susanna Rowson, *Slaves in Algiers*, Philadelphia, Wrigley & Berriman, 1794, p.46.

(٢٩) جون. ب. وولف، مرجع سابق، ص٢٢٨.

(٣٠) ولدت في انجلترا سنة ١٧٧٩، من عائلة محترمة وغنية، تزوجت سنة ١٧٩٧ بالقبطان هنري مارتين قائد إحدى أساطيل الشركة الهندية الشرقية، حيث قضت ستة سنوات أسيرة في الجزائر.

(31) Maria Martin, *History of the captivity and sufferings of Msr.* Maria *Martin*, Boston, Printed for W.Crary, 1807, p.49.

(32) Ibid, p.86.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449